ناجي نعمان في وداع حنـّا الفاخوري:
لعلَّ الرُّمحَ يُقارِعُ الآنَ أبا فراسٍ وعنـترة

كالرُّمح كان، وظلَّ، واقِفًا حتَّى لحظة النِّهاية؛ وكما الرِّيشةُ لم يُعتِق الأدبَ العربيَّ من حِبره إلى الرَّمق الأخير. وإنْ هو لم يُوَفَّقْ في إنهاء سيرة حياته الَّتي عكفَ عليها وقد ركضَت أعوامُه شَطرَ القرن الكامِل، فإنَّ أعمالَه الأدبيَّة الوفيرة الَّتي نشأت عليها أجيالٌ وأجيال، إنَّما تَحكي عُمرًا صرفَه الأب حنَّا الفاخوريّ في خدمة الضَّاد – وإنْ على حساب خدمته الرَّسوليَّة – شعرًا، وتصنيفاتٍ، وكتبًا مدرسيَّةً في اللُّغة والأصول والإنشاء والأدب والفلسفة، وترجماتٍ إلى العربيَّة من الفرنسيَّة واليونانيَّة واللاَّتينيَّة، أقولُ أعمالاً أدبيَّةً قارَبَت عددَ سِني عمره، لا بل زادَتها.

"تاريخُ الأدب العربيّ"، هذا الَّذي نُقلَ إلى الفارسيَّة والرُّوسيَّة، وطُبعَ عشرات المرَّات، وسُرِقَ في أكثرَ من دولة، ما زالَ يَشهد. "تاريخ الأدب العربيِّ في المغرب" يَشهدُ أيضًا، وكذلك "تاريخ الفلسفة العربيَّة". وأمَّا الشُّهودُ العِيان – والزَّمنُ زمنُهم – فمئاتُ آلاف النُّسَخ المَبيعَة من هذه المجلَّدات، ومن غيرها، الصَّادرةُ عن المكتبة البولُسيَّة والمِطبعة البولُسيَّة الشَّهيرة، إلى ملايين الطَّلَبَة والمُراجِعين العرَب و/أو الباحِثين في الشُّؤون العربيَّة عبرَ العالَم.

حنَّا الفاخوريّ هذا، علاَّمة، وقد كان لي شرفُ تكريمه في "لقاء الأربعاء" الأوَّل منذ ثلاثة أعوام، كما كُرِّمَ في أكثرَ من بلدٍ ومُنتدى؛ ونالَ، عامَ ٢٠٠٢، الأُستاذيَّةَ الجامعيَّةَ الفخريَّةَ من جامعة العلاَّمة الطَّباطبائيّ في إيران. بيدَ أنَّ التَّكريمَ والأستَذَةَ، وما إليهما، لا مُستَقرَّ لها، تزولُ مع رحيل صاحبها، أو بالكاد تدخلُ مصفاةَ التَّأريخ، فيما صاحبُ الفَضل، أَكُرِّمَ أم لم يُكَرَّم، أَنالَ الألقابَ أم لم ينَلْها، أَسعى لما سبَق أم سعى ما سبَق إليه، وعلى ضعفه الإنسانيِّ الَّذي لا يَسلَمُ بَشَريٌّ منه، هو هو، خالِدٌ بما يتركُ من أعمال إنسانيَّةٍ و/أو تصبُّ في خدمة الإنسان، وحنَّا الفاخوريّ خدمَ الإنسانَ العربيَّ عبرَ خدمة حبيبته... عنَيتُ اللُّغةَ العربيَّة.

حنَّا الفاخوري، بعدَ اليوم، لا نهوضَ مُبكِرًا، ولا كتابةَ مُستمرَّةً لساعاتٍ في غرفتك–المُتحَف، تلك الَّتي، على بساطتها، عُرِفَت بنظافتها، واشتهرَت بملايينِ الكلمات الَّتي رُصِفَت على مكتبها؛ أقولُ لا نهوضَ ولا كتابةَ، بل تجوالٌ في الفضاء الرَّحب حيثُ ستلقى مَن أحبَبْتَ من أخوتك البولُسيِّين، ولاسيَّما جورج، توأم روحك في الكهنوت والكتابة. ورجائي، إنْ صودِفَ والتقَيتَ هناك مَن آخَيت في الكهنوت، وقارَعتَ في الشِّعر، عنَيتُ العمَّ الفاضِلَ المِتروبوليت نِقولاَّوس، فالوالدَ الحبيبَ، مِتري، رجائي أن تنقلَ إليهما شوقي ورغبتي بقُربَ اللُّقيا.

وإلى بَني البولُسيَّة، وأهلِ مجدلون ورياق وزحلة ولبنان، كما إلى كلِّ العرب، أقول: إنْ غادرَكم وغادرَنا فارسٌ آخَرُ من أصحاب اليَراع، فإنَّ كنفَ جمعيَّة القدِّيس بولُس وأرضَ لبنانَ بعامَّةٍ، وكذا أرضُ العُرب، لن تخلوَ من البُذور الطَّيِّبة، ولن تبخلَ على الأجيال الطَّالعَة بمِثل حنَّا الفاخوري؛ وأطَمئِنُ أنْ لا تَخشَوا على الرَّاحِل الكبير، فهو الآنَ في حضرة الباري، يُناقِشُ، على الأرجَح، كبارَ العرب – وأعني بالكبار هنا، وكعادتي، أصحابَ القَلَم حَصرًا –، ولا بدَّ أنَّه، الآنَ أيضًا، وكما الرُّمح، يُقارِعُ أبا فراسٍ وعنترة!

في الخامس من تشرين الأوَّل ٢٠١١